الدرس الثاني عشر

ثم هؤلاء – أيضا – قسمان:

منهم: من يترك الواجبات والفرائض لجمعيّته.

ومنهم: من يقوم بها ويترك السّنن والنّوافل، وتعلّم العلم النّافع لجمعيّته.

والحق: أن الجمعيّة حظ القلب، وإجابة داعي الله حقّ الرّب، فمن آثر حقّ نفسه على حقّ ربّه فليس من العبادة في شيء.

(الشرح)

كأنه لحظ –رحمه الله– أن الذي يقدم حق قلبه على حق فإنما في الحقيقة ما عبد ربه، وإنما عمل لحظ نفسه، وكأنه يريد أن يرضي نفسه وضميره ويسكن قلبه، و لم يلحظ في ذلك عبادة الله.

والحق أن حظ القلب ينال بإجابة داعي الرب، وأنه لا داعي لتشطير المسألة وتفريقها، فإن اشتغال الإنسان بامتثال الأوامر واجتناب النواهي به حياة القلب وبه جمعيته، فليس صوابا أن نتصور أن جمعية القلب إنما تكون بأن يستجمع الإنسان فكره وهمه ويمنع خاطره من التشتت يمنة ويسرة، وأن اشتغاله بالصلاة أو غيرها من الأمور المشروعة يشتت عليه قلبه.

بل نقول: العبادة الحقة هي ما كان عليها نبينا ﷺ، فقد كان زوجا ومعلما وقاضيا ومفقها وقائدا، كان ﷺ يتقلب في جميع شؤون الحياة، فهل يقال إن ذلك يفرق الجمعية؟ لا، **{قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الأنعام:١٦٢]، العبادة الحقيقية والجمعية الحقيقية للقلب هو أن يكون ذلك القلب من المرونة بحيث يتكيف مع جميع الأحوال والتصرفات ويراها لله ﷻ، فلا حاجة إلى أن نفرق بين حظ القلب وحق الرب.

(المتن)

الصنف الثالث: رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفعٌ متعدٍّ، فرأوه أفضل من النّفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح النّاس، وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالجاه والمال والنّفع أفضل، لقوله صلى الله عليه وسلم: (الخَلْقُ كلُّهم عيالُ اللهِ فأحَبُّ الخلْقِ إلى اللهِ أنفعُهُمْ لِعيالِهِ)(١).

قالوا: وعمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعدّ إلى الغير، فأين أحدهما من الآخر؟، ولهذا كان (فَضْلَ العالِمِ على العابدِ كفَضْلِ القمَرِ ليلةَ البَدْرِ على سائرِ الكواكبِ) (١).

(١)أخرجه الطبراني في- (المعجم الأوسط ٥٥٤١)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢/ ١٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠٤٨) .

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعلي: (لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)[٢]، متفق عليه، وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا)[٣] ، رواه مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللهَ و ملائكته و أهلَ السَّماواتِ و الأرضِ حتَّى النَّملةَ في جُحرِها، و حتَّى الحوتَ ، ليُصلُّون على مُعلِّمِي النَّاسِ الخيرَ)[٤]، رواه الترمذي والطبراني، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن العالم ليستغفر له من في السّموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملةُ في جحرها)[٥]. رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

قالوا وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النّفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي تسبّب فيه، والأنبياء – عليهم الصّلاة والسّلام – إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق، وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع، ولهذا أنكر النّبي صلى الله عليه وسلم على أولئك النّفر الذين همّوا بالانقطاع والتّعبّد، وترك مخالطة النّاس.

ورأى هؤلاء أن التّفرغ لنفع الخلق أفضل من الجمعيّة على الله بدون ذلك، قالوا: ومن ذلك العلم والتّعليم، ونحو هذه الأمور الفاضلة.

(الشرح)

عن أنس بن مالك قال: (جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[٦].

---

(١)أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١) واللفظ له، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري- (٣٧٠١)، ومسلم- (٢٤٠٦)، متفق عليه.

(٣) أخرجه مسلم- (٢٦٧٤).

(٤)أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني (٢٧٨/٨).

(٥)أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧١٥) باختلاف يسير.

(٦) أخرجه البخاري- (٥٠٦٣)، ومسلم- (١٤٠١)، متفق عليه.

هذا الصنف الثالث أمره بينّ وهم الذين يرون أن أفضل الأعمال هي أعمال النفع العام المتعدي الذي فيه مصلحة للخلق، وأنه أفضل من النفع القاصر الذي عليه الصنف الثاني والصنف الأول.

(المتن)

الصنف الرّابع: قالوا أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرّب – سبحانه وتعالى –، واشتغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

(الشرح)

لعلها وإشغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

(المتن)

قالوا أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرّب – سبحانه وتعالى –، واشغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النّهار، بل من ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضّيف: القيام بحقّه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات السّحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والذّكر والدّعاء.

والأفضل في وقت الأذان: ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجدّ والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أوّل الوقت، والخروج إلى المسجد وإن بعد.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج: المبادرة إلى مساعدته بالجاه والمال والبدن.

والأفضل في السّفر: مساعدة المحتاج، وإعانة الرّفقة، وإيثار ذلك على الأوراد والخلوة.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعيّة القلب، والهمّة على تدبّره، والعزم على تنفيذ أوامره، أعظم من جمعيّة قلب من جاءه كتابٌ من السّلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التّضرّع والدّعاء والذّكر.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجّة: الإكثار من التّعبّد، لا سيما التّكبير والتّهليل والتّحميد، وهو أفضل من الجهاد غير المتعيّن.

والأفضل في العشر الأواخر من رمضان: لزوم المساجد، والخلوة فيها، مع الاعتكاف والإعراض عن مخالطة النّاس، والاشتغال بهم، حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عند كثيرٍ من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته وحضور جنازته، وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيّتك.

والأفضل في وقت نزول النّوازل وأذى النّاس لك: أداء واجب الصّبر مع خلطتك لهم، والمؤمن الذي يخالط النّاس ويصبر على أذاهم وإيذائهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط النّاس ولا يصبر على أذاهم، وخلطتهم في الخير أفضل من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشّرّ خير من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله وقلّله، فخلطتهم خير من اعتزالهم.

وهؤلاء هم أهل التّعبّد المطلق، والأصناف التي قبلهم أهل التّعبّد المقيّد، فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلّق به من العبادة وفارقه؛ يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عبادته، فهو يعبد الله – تعالى – على وجه واحد، وصاحب التّعبّد المطلق ليس له غرض في تعبّد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبّع مرضات الله – تعالى.

بل غرضه تتبّع مرضات الله – تعالى، إن رأيت العلماء رأيته معهم، وكذلك في الذّاكرين، والمتصدّقين، وأرباب الجمعيّة، وعكوف القلب على الله، فهذا هو الغذاء الجامع للسّائر إلى الله في كل طريق، والوافد عليه مع كل فريق.

(الشرح)

هذا هو التحقيق في هذه المسألة، وهو ما عليه الصنف الرابع الذي يعبد الله تعالى في كل حين بما يناسبه، ويشتغل بكل عبادة في الظرف الذي شرعت له مكانا أو زمانا أو حالا.

فالشريعة واسعة الأرجاء، تلبي جميع الحاجات، وخصال الإيمان تربو على السبعين، والموفق هو من ضرب في كل محمدة بنصيب، ولم يقتصر على شعبة ويهجر بقية الشعب، وهذا المسلك هو الذي يحقق للعبد العيش الكريم، والنفع الخاص والعام، وأما ما سواه من الاختزالات والاختصاصات والتقييدات، فإنها وإن قادته إلى التوفر على شيء معين إلا أنها تحرمه من أشياء كثيرة.

ومن توفيق الله للعبد أن يهدى إلى ما هو الأفضل في كل حال، فينبغي إذا تعارضت عندك الأمور والمصالح أن تبصر بعين الشريعة وتنظر ما هو الأفضل والأحب إلى الله ﷻ في هذا الحال، فإن هديت فذاك وإلا فاستشر

من هو أعلم منك حتى توفق لعبادة الله تعالى على أكمل الوجوه، ويحصل به انتظام أمر المسلمين وقضاء مصالحهم وحوائجهم.

فمن الناس الآن من يرى أن أمره لا يستقيم إلا إذا اعتزل الناس وخرج مع قلة من أصحابه لكي يتعاهد قلبه ويصلح حاله وربما ترك وظيفته وأهله وضيع عياله بدعوى الجمعية وإصلاح القلب والمجاهدة.

فينظر من زاوية واحدة ويفوته مصالح كثيرة، وخير الهدي هدي محمد، فينبغي أن يترسم الإنسان هدي النبي ﷺ ويتصور كيف كان ﷺ في أحواله وتقلباته ومعاشه وأيامه، في بيته وبين أصحابه، فلا يمكن أن توجد عبادة أفضل من عبادته، هو معلم الناس الخير، لا هدي أفضل من هديه، فعلى الإنسان أن ينحي أهواء نفسه ورغباته جانبا ولا يحكم أقوال الرجال وآراءهم في أمر دينه، بل يتبع خطى محمد ﷺ ويلزم غرزه.

(المتن)

واستحضر هنا حديث أبي بكر الصدّيق – رضي الله عنه– وقول النّبي صلى الله عليه وسلم بحضوره: (هل منكم أحدٌ أطعم اليوم مسكينا؟ ". قال أبو بكر: أنا. قال: "هل منكم أحدٌ أصبح اليوم صائما؟ ". قال أبو بكر: أنا. قال: "هل منكم أحدٌ عاد اليوم مريضا؟ ". قال أبو بكر: أنا. قال صلى الله عليه وسلم: "هل منكم أحدٌ اتبع اليوم جنازةً؟ ". قال أبو بكر: أنا) **... الحديث[1].**

هذا الحديث روي من طريق عبد الغني بن أبي عقيل، قال: حدّثنا يغنم بن سالم، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا في جماعةٍ من أصحابه فقال: "من صام اليوم؟ قال أبو بكر: أنا. قال: "من تصدّق اليوم؟ قال أبو بكر: أنا. قال: "من عاد اليوم مريضا؟ قال أبو بكر: أنا. قال: "من شهد اليوم جنازةً؟ قال أبو بكر: أنا. قال: "وجبت لك)[2]**. يعني: الجنّة.**

ويغنم بن سالم وإن تُكلّم فيه لكن تابعه سلمة بن وردان، وله أصل صحيح من حديث مالك، عن محمد بن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ "، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ

(1) أخرجه مسلم (١٠٢٨).

(2) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٠٥٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٥١٥).

عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا، قَالَ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»[1].

هكذا رواه عن مالك موصولاً مسندًا عن يحي بن يحي، ومعن بن عيسى، وعبد الله بن المبارك.

ورواه يحي بن بكير، وعبد الله بن يوسف، عن مالك عن ابن شهاب، عن حميد مرسلاً. وليس هو عند القعنبي لا مرسلاً ولا مسندًا.

ومعنى قوله: "من أنفق زوجين" يعني: شيئين من نوعٍ واحدٍ، نحو درهمين، أو دينارين، أو فرسين، أو قميصين، وكذلك من صلّى ركعتين، أو مشى في سبيل الله – تعالى – خطوتين، أو صام يومين، ونحو ذلك، وإنما أراد والله أعلم أقل التكرار، وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البرّ، لأن الاثنين أقل الجمع، فهذا كالغيث أين وقع نفع، صحب الله بلا خلق، وصحب الخلق بلا نفس، إذا كان مع الله عزل الخلائق مع البين وتخلّى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلّى عنها، فما أغربه بين النّاس، وما أشدّ وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه.

واعلم أن للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرقا أربعةً، وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحِكم والتعليل، الذين يردّون الأمر إلى نفس المشيئة.

وصِرف الإرادة. فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلاّ لمجرّد الأمر، من غير أن يكون سببا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرّد الأمر ومحض المشيئة. كما قالوا في الخلق: لم يخلُق لغايةٍ ولا لعلّةٍ هي المقصودة به، ولا لحكمةٍ تعود إليه منه، وليس في المخلوقات أسباب تكون مقتضيات لمسبباها، وليس في النّار سبب للإحراق، ولا في الماء قوّة الإغراق ولا التّبريد.

(الشرح)

هؤلاء هم الجبرية ومنهم الأشاعرة الذين ينفون الحكمة والتعليل، ويقولون: أن الله تعالى قدر المقادير لا لحكمة ولا لعلة، بل لمحض المشيئة، فهم ينفون الحكمة والتعليل، ويسلبون صفة الحكمة لله ﷻ ويأتون بقول من أعجب الأقوال، وهو أنهم ينكرون ما ركب الله تعالى في المخلوقات من قوى وطبائع ويقرون ذلك بكلام مضحكة للعقلاء، بل وللسفهاء.

---

(1) أخرجه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧)، متفق عليه، وقد رواه البخاري رحمه الله، كما أن الحديث الذي ذكره أولا: هل منكم أحدا أطعم اليوم مسكينا، قد رواه مسلم، والمصنف ليس في حاجة إلى رواية يغنم بن سالم لأنه متكلم فيه، فالحديث ثابت في صحيح مسلم.

فيقولون مثلا: ليس في الماء قوة الري، وليس في النار خاصية الإحراق، يقولون: إذا وضعت هذه الورقة على النار فإياك أن تقول احترقت بها، فإنك إن قلت ذلك فأنت مشرك. ولكن قل احترقت عندها لا بها، فإنك إذا أثبت باء السببية فقد أثبت خالقا مع الله، سبحان الله! يزعمون أن هذا مقتضى إثبات القدر، وأن الأشياء كلها ليس فيها طبائع ولا خواص، وهذا مناف للعقل وللحس، فإن الله ﷻ جعل في النار قوة الإحراق، وليس في هذا شيء من الشرك؛ لأن الذي خلق في النار خاصية الإحراق هو الله تعالى، والذي خلق في الماء خاصية الري هو الله تعالى، والذي خلق في الطعام خاصية الإشباع هو الله ﷻ.

لكن هؤلاء الغالين يظنون أن ذلك يقتضي الشرك بالله تعالى، فلذلك ينفون الحكمة والتعليل، ولا يثبتون (باء السببية) ولا (لام التعليل) ولا (كي) مع أن القرآن الكريم مليء بهذه الأدوات، فالله تعالى يقول: {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } [الحشر: ٧] {لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ} [الأحزاب: ٣٧] ، {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا} [النساء: ١٦٠]، {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ} [النساء: ١٥٥].

فباء السببية ولام التعليل وكي كثيرة في كتاب الله، وقد عد ابن القيم رحمه الله في كتابه (شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل)، اثنين وعشرين وجها في الرد على هذا الباطل، في الفصل الثاني والعشرين، وهو من أحسن ما صنف في باب القضاء والقدر، والمقصود أن نفاة الحكمة والتعليل يرون أن العبادات أفعال طلبت لمحض المشيئة، ولا حكمة لها.